مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2570 0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 07 العدد: 02 جوان (2023) ص 734-740

خطاب الألوان نسقا ثقافيّاً ساخراًفي رواية "سِفر القُضاة" لأحمد زغب.

The Discourse of Colors is a satirical cultural pattern in Ahmed Zeghab's novel "sifr alkodhat"

د.السعيد قبنّه*

جامعة الشهيد حمّه لخضر-الوادي (الجزائر)

guebennasaid@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2022/02/11
تاريخ القبول:
2023/01/07

الكلمات المفتاحية:
- ✓ النسق
- ✓ المجتمع
- ✓ التقليدي
- ✓ الصحراء
- ✓ الألوان

الملخص:

يستهدف هذا المقال خطاب الألوان باعتباره نسقا ثقافيا للسخرية في يوميات مجتمع الصحراء التقليدي، حيث تتجلّى من خلاله الفجوات الاجتماعيّة والأخلاقية في هذا النوع من المجتمعات المغلقة .

وتعرض علينا رواية"سِفر القُضاة" للكاتب أحمد زغب[1] مشاهد دراماتيكية ساخرة في حياة الفئات المهمّشة منه، وقد استحالت إلى عيوب نسقية مزمنة تصنع المفارقة المجتمعيّة، ولعلّ في النقد الثقافي ما يسهّل علينا تناول هذه الهوامش بالدراسة والتحليل.

Article info

Received
11/02/2022
Accepted
07/ 01/2023

Keywords:
- ✓ *Layout*
- ✓ *Community*
- ✓ *Traditional*
- ✓ *Desert*
- ✓ *colors*

Abstract :

This article targets the discourse of colors as a cultural pattern of irony in the diaries of a traditional desert society, in which the social and moral gaps in this type of closed society are evident.

The novel "sifr al-khodat" by writer Ahmed Zeghab presents us with dramatic and satirical scenes in the lives of marginalized groups, and it has turned into chronic systemic defects that create a societal paradox, and perhaps cultural criticism makes it easier for us to study and analyze these margins.

* المؤلف المرسل

خطاب الألوان نسقا ثقافيّاً ساخراً في رواية "سِفر القُضاة" لأحمد زغب.

مقدّمة:

يعدّ موضوع السخريّة من المواضيع الأدبية القديمة التي حظيت بالاهتمام من لدن الشعراء والكتاب والمشتغلين بالأدب عموما، ربما قد وُجد لها مسمّى آخر هو الهجاء، بيد أنّه يمكن التمييز بين الهجاء والسخرية، ذلك أنّ الهجاء في الغالب يكون خطابا مباشرا، في حين أنّ السخرية تميل كثيرا إلى الكناية والتلميح والتعريض بطريقة غير مباشرة ممّا يجعلها أكثر إيلاما وأشدّ تأثيرا على النفس، لأنّها كما أسلفنا أن قلنا من وسائل الحجاج في المغالبة والانتصار للباطل، قد يكون ذلك على حساب القيم أحيانا، ممّا يخلق لدى المتلقي نوعا من العبء النسقي الذي يجبره على بذل المزيد من الجهد لفكّ شفرتها واستيعاب المعاني التي تحملها أنساقها، وحتى أنّ الدوافع من ورائها تكشف لنا الرغبة الملحّة عند صاحب هذا الفعل في ممارسة عمليّة النقد بالتعريض، ربّما وقع تداخل في المفاهيم بينها وبين غرض الهجاء إلا أنّ كليهما يستهدف غاية واحدة، هي الإنسان كقيمة مركزيّة؛ وكتب الأدب في هذا الشأن حفظت لنا مواقف كثيرة كان للسخرية فيها حضور واضح وجلي لا يخلو من طرافة في أحيان كثيرة، وكان هذا من أهمّ الأسباب التي أسهمت في خلود الأدب العربي.

وهذا ما يؤكّد لنا أنّ السخرية قد تغدو من صميم الأنساق الثقافية التي تختبئ وراء الجمالي من الخطاب، بحيث لمسنا ذلك في المجتمع التقليدي من خلال رواية (سِفر القضاة)وهي بذلك مشكّلة متعالية ثقافيّة يتداولها الناس عبر آليات المجاز المختلفة كالتورية والاستعارة والكناية، وهي الآليات ذاتها التي يستعملها النقد الثقافي منهجاً تحليليا في الكشف عن عيوب الثقافة من خلال الأنساق المضمرة.

فالسخرية –إذن- هي من الأنساق المضمرة التي قد يبدع فيها المجتمع التقليدي بسبب بساطة الحياة وسذاجة التفكير وهذا ما وقفنا عليه عيانا في رواية (سفر القضاة) ولمسناه في لغة الكاتب، وحتى نقف على حقيقية هذه الأنساق سنجدّ في البحث عنها في رواية (سفر القضاة)،وفي أذهاننا بعض التساؤلات منها: أين تجسّدت أنساق السخرية في حياة مجتمع سِفر القضاة؟ ثم ما هي أبرز دلالاتها الضمنية؟

1.مفهوم السخرية: يبدو أنّ موضوع السخرية من المواضيع القديمة التي ظهرت مع بداية الوعي الإنساني, فنجدها تتجلّى بتعابير بسيطة من خلال النقش على الحجر قديما "فقد كشفت الدراسات والأبحاث الأثرية على وجود رسومات كاريكاتيرية خلّفها الإنسان القديم على جدران الأهرامات المصرية كما جاءت في المعابد القديمة ... "[2].

وهذا يدلّ على أنّ السخرية بدأت تتشكّل مع الإنسان حين بدأ يتفاعل مع محيطه الإنساني والاجتماعي، وتحولت بعد ذلك إلى مشاعر إنسانيّة يكثر فيها الجدل باعتبارها وسيلة من وسائل التواصل النشط بين المرسل والمتلقي في مستوى الخطابات اليومية.

وأمّا في الجانب اللغوي فنجد "سَخَر: يَسْخَرُ سَخرا وسِخرة وسُخريًّا وسُخريّة: هزئ به وفي الحديث (أتسخر منّي): أي تستهزئ بي"[3], فالسخرية لغة هي الاستهزاء والتذليل والتحقير.

وأما اصطلاحاً فإنّها" شكل خطابي متفرّع عن التقويمي, وجنس من أجناسه الصغرى يتميز ببنية خطابية خاصة "[4], وتقوم السخرية " على العقل والفطنة, وتقوم على الثقافة وسعة العلم وتهدف إلى أغراض بعيدة تتّصل بالمجتمع وما فيه من المبادئ الفاسدة أو الهيئات المسيطرة, أو الطبقات المنحرفة أو الشخصيات البارزة "[5].

والملفت للانتباه أنّ هناك علاقة وطيدة بين السخرية والحجاج في الخطاب، إن نجاح العملية الحجاجية مرهون بمدى ذكاء المرسل وكفاءته في حسن توظيفه لآليات الحجاج وأدواته؛ ثم إنّ توظيف السخرية يعدّ دليلا قاطعا على وجود الحجاج, ومن هنا فإن خطابات السخرية " تحمل رسالة من مخاطب مدّعٍ لطرح فكرته أو رؤيته الخاصة، ويحاول إيصالها للمتلقي قصد التأثير فيه وتغيير وجهة نظره، وفي حالة اعتراض المتلقي يكون المدّعي مستعدا لإفهامه, لكن عوض التدليل بالحجاج القويم يلجأ إلى أسلوب السخرية "[6], فهو من خلال هذا اللّجوء إنما يقوّي حجّته ويضفي عليها صبغة الإقناع والتأثير.

2.السّخرية وخطاب الألوان في مجتمع سِفر القضاة:

لقد احتوى نص الرواية على إشارات سيميائية لخطاب الألوان حملت في مضمونها طابع السخرية، وممّا يؤكّد لنا ذلك أنّ ذكر الألوان تردّد مرّات عديدة بين أسطر الرواية وفي مقاطعها السردية الحاسمة، الشيء الذي لفت انتباهنا إليه ودعانا إلى دراسة سيمياء اللون فيهاغير أنّنا سنعالج هذه المسألة وفق القراءة الثقافيّة لها، وبناء على خطاب السخرية كما أشرنا إلى ذلك آنفا.

1.2. الأسمر النسقي/الصحراء والهويّة يرتبط العنصر البشري الصحراوي غالبا بنسق السواد بفعل تأثير العامل الإيكولوجي الذي يعدّ أحد عناصر الثقافة التي يصدّرها هذا المجتمع إلى الآخر المختلف؛وللتحايل على لون السواد الممقوت ثقافيا في بيئته الاجتماعيّة،تلجأ الثقافة الشعبية إلى التورية والتّستر على العيوب النسقية التي تحيل إليه، فاللون الأسمر نسق جمالي صنعته ثقافة المجتمع التقليدي الذي يرى في السواد صورا مشوّهة عديدة ارتبطت في المخيال الشعبي بظاهرة العبيد،وتسمّيهم العامة بلغتها(الوُصفان)*، وهو لقب يدعى به كلّ ذي بشرة سوداء، وعند العرب القدامى أنّ اللون الأسود ممقوت ومرفوض ثقافيّا لأنّه يتعارض مع الحركيّة والنشاط الذهني، ويحيل إلىالموات والعدميّة، فهو عندهم يرتبط "بالحزن والألم والموت..كما أنّه رمز الخوف من المجهول والميل إلى التكتّم وهو يدلّ على العدميّة والفناء"[7]،بينما تحيله الثقافة الشعبية إلى كلّ مستقذر ومَهين من البشر قليل الحيلة عديم الرأي، فلا عجب أن يُسخر من كلّ من سُفّه رأيه فيقال (رأي العبيد)*فهذه الثقافة صنعت أنساقها المضمرة بيئة الصحراء القاسية التي فرضت على أهلها إعادة ترتيب مفاهيم القيم وفق المفارقات المجتمعيّة، وهي ذاتها التي صنعت خطاب السخريّة باللون، فحين يُراد (التعريض) بالمرأة مثلافي المجتمع التقليدي فيُقال:(امرأة سمراء) بدل سوداء تاركين حريّة التأويل للمتلقي وفق مفارقة السخرية،والنسق المضمر المسكوت عنه هو أنّها سوداء كالعبيد، لذلك فإنّ اللون الأسمر أكثر عرضة لهذه المفارقات،وهذا ما تبيّن لنا جليّا في شخصية (الشاب لخضر) الطالب الزيتوني والشخصية المتناقضة.

وبداية السخريّة مع لونه تعود بنا إلى ما بدأه الكاتب في المشهد الأوّل من الرواية وهو الذي يصف لنا فيه أحدالمشاهد المألوفة في الصحراء أثناء موسم جني التمور، وتجعل من وجه الحاج لخضر البيكو لعبة نسقيّة تحكي لنا سيرة هذا الرجل **"..كأنّها ترسم لوحة فنيّة لسيرة الحاج لخضر بؤرتها وجهه الأسمر الذي تنبسط أساريره تارةوتنقبض تارة أخرى تحاكي ألوان الحياةوتقلّبات الزمان.."**[8]

غير أنّ هذا اللون سرعان ما يتحوّل إلى السواد في صورة برنوسه* الذي يلتحفه بخلاف غيره من شيوخ القرية، ويتحوّل معه خطاب السخريّة إلى لسان أولئك الحسدة من أهل قريته الذين كان لهم رأي آخر في سرّ اختيار الحاج لخضر للون هذا البرنوس"..**أمّا الحاسدون فلهم رأي آخر يستمدّ من سيرة الرجل الحافلة بالأعمال المتناقضة .."**[9]

ولكنّ الكاتب سرعان ما يتدخّل لفض هذا المأزق التفسيري –إنجاز التعبير- فيسخر هو الآخر من هؤلاء الشيوخ [المفسّرين] قائلا **"..وأنّى لهؤلاء القرويين الكسالى أن يبذلوا هذا الجهد، فيختفي فضول المعرفة للرجل اللغز كما يختفي قرص الشمس تدريجيا وراء الأفق بين النخيل البعيد "**[10]

ولم تنتهِ حكاية اللون الأسمر في فصول الرواية بل لا تزال تلاحق البطل الطالب لخضر الذي رمت به الأقدار بين دروب (نهج الظلام)، حيث تقيم العاهرات ليصبح أحد نزلائه الدائمين فيه،وتتحوّل تلك (السمرة الوديعة) التي تحفظ القرآن إلى مجرّد (هزّي) وحارس لبائعات الهوى،بحيث راح (الكاتب) بومضة تبئيريّة يشرح للقارئ سخريّة هذه المفارقة قائلا: **"من كان يظنّ أنّ ذلك الشاب الأسمر الوديع لخضر أو الطالب لخضر كما عرف بين أبناء قريته بعد شيوع خبر حفظه للقرآن ...من كان يصدّق أنّ ذلك الطالب الشاب بين ذراعي حنّا فتاة الليل، في نهج الظلام "**[11]

ولعلّ ما يستوقفنا هنا في هذا المشهد هو التعريض الذي مارسه الكاتب بـ(الطالب لخضر)حينما تعلّق الأمر بلون السمرة والذي وصفه بالوداعة، وكأنّه يريد أن يقول أنّ هذا اللون هو جزء من نسق ثقافي صحراوي يحيل دائما إلى الطيبة والوداعة ورقة المشاعر والبساطة الى درجة السذاجة، حيث يختزل هذا اللون لنا النظرة الدّونية التي يحملها الآخر المختلف(ساكن المدينة) كنسق مضمر عن كلّ من يسكن الصحراء، فالطالب لخضر لم يستطع أن يصمد ثقافيا أمام إغراءات الثقافة الجديدة، فسرعان ما انهار لديه نسق القيم الصحراويّة لمجرّد تعرّضه لأوّل امتحان خارج البيئة التي جاء منها، فاستسلم للنسق الجديد نسق الرذيلة والحياة الماجنة فكانت المفارقة التي أوقعته بين نسقين، نسق قادم من أعماق الصحراء تائهٌ ونسق موبوء لا يقيم للفضيلة وزناً فكان تعدّد صيغ الرّفض في هذا المشهد يوجّه القارئ إلى مواطن السخرية من الشخصية السمراء القادمة من عمق الصحراء تلكم التي ضيعت هويتها أمام أول اختبار حقيقي تواجهه مع الهويّة الجديدة.

ولم يستطع الطالب لخضر أن يفرض نفسه في هذا الوسط الموبوء، أو بالأحرى لم يستطع أن يفرض ثقافته المحافظة التي جلبها معه من الصحراء، ثمّ كطالب علم يحمل في نفسه غاية سامية قطع مسافات بعيدة وتحمّل مشاقاً من أجلها، وإذا به يتخلّى سريعا عن

هويّته الصحراوية السمراء البريئة، ويستحيل إلى مجرّد (هزّي) يقتات من عضلاته تستعمله (العاهرات)كما يُستعمل البغل في حمل الأثقال.

وهنا يبرز نسق السخرية من لون(السمرة)، إذ يصبح هذا اللون علامةً مميّزةً يُعرف بها هذا الشاب الصحراوي في نهج الظلام ،فلم يعد مهمّا اسمه وعلمه أمام نسق السمرة، بل أمسي هذا النسق حديث الخاص والعام وكثرت حوله التأويلات التي تبحث عن تفسير لهذه الشخصية السمراء ،وتصبح (السُّمْرَة) والقوة شيئا واحدا فيه، لتجتمع في شخصيته كل المتناقضات التي تصنع السخرية منه في ذروتها، فهو (طالبٌ)وهزّي ومعاقر للرذيلة، ومع هذا فإنّ (السمرة) تتفوّق في الأخير على كلّ التأويلات" **من يومها والطالب لخضر مهاب الجانب في الحيّ..فمن قائل أنّه تعلّم رياضة الجيدو ومن قائل إنّه طالب في الزيتونة يقرأ علوم الزمياطي..واختلفت التأويلات..لكنّها اتفقت على فرض الشاب الأسمر القوي هيبته على مرتادي الدّرب الموبوء بأنواع الرّذيلة.**"[12]

ولهذا فإنّ مجتمع نهج الظلام لا يعبأ كثيرا بمكانة الطالب لخضر العلميّة بقدر إصراره على أنّ هذه الشخصية تعيش على نقيضين هما: انهيار نسق القيم السامية من جهة، وتحوّله إلى مجرّد ضجيع لعاهرة ليل من جهة أخرى، بينما أنّ كلّ الشكوك التي تحوم حول حقيقة هذا الطالب تذوب كلها في بوتقة نسق السخرية مع ظهور نسق جديد يتمثل في تحوّل قيم الذات الإنسانيّة المشبعةبروح العلم والمعرفة إلى ذات حيوانيّة تتّخذ من الجسم فقط وسيلة للبقاء والتفوّق،وهذا ما يشعر به الطالب لخضر بعد أن ضيع بوصلته مع الغاية المثلى التي ترك أهله ووطنه من أجلها،فهو بين هذا المجتمع مجرّد حيوان مسخّر لا غير،

وفي مستنقع العاهرات تتحوّل دلالة السمرة بالطالب لخضر إلى ميدان الصراع من أجل البقاء فلم تعدّ عضلاته وحدها كافية لتضمن له البقاء في هذا النهج الموبوء، فيتعرض (نسق السمرة) إلى سخرية جديدة حين يضطرّ إلى تعلّم بيع السجائر والنفّة* وهو الطالب الزيتوني الذي يحفظ القرآن ويُقبل يوميّا على دروس الحلال والحرام في حلقات الزيتونة العامر !! فقد "**بدأ بعلبة السجائر، ثمّ انتقل إلى أكياس النفّة ثمّ حبّات العلك وعلب الكبريت، ثم تطوّر الأمر إلى المناديل وحتى بعد إن استقرّت به الأوضاع في مساكن الطلبة، يعرف جميع الطلبةبأنّ الطالب الأسمر لديه أقلام للبيع حتى الدفاتر لمن يحتاج إليها**"[13]

2.2. الأخضر النّسقي/غريزة حبّ البقاء: الشائع عن اللون الأخضر هو أنّه يرمز إلى الحياة والتجدّد، والصراع من أجل البقاء، وفي الثقافة الشعبية كمدلول إنساني فغصن الزيتون شعار الحياة والأمل وعودة الحياة بعد الموت، والإصرار على محاربة اليأس، وهو التفسير الوحيد لدلالة اسم (لخضر) في الثقافة الشعبية، فهو نوع من الرفض لكلّ ما يشوّه جمال الحياة وبهائها واستمراريتها كما يدفع النفوس دفعاًإلى معانقة الأمل ولو كان سراباً بقيعة!!

فـ(لخضرالحميدي) أو الطالب لخضر الذي لم تنجب أمّه ذكرا غيره كان له حظّ من دلالة اسمه الذي لا يخلو من معنى الشفقة، فأهله وأصحابه ومعارفه كثيرا ما يدلّلونه بترخيم اسمه إلى (دخّي)* ، ولا سبيل لتفسير هذه النسقيّة العَلَميّة –إن جازت لنا التسمية- إلا أنّها نوع من المواساة لهذه العائلة البائسةالتي لا تملك إلا عينا واحدة –كما يعبّر عنها المجتمع الشعبي نسقيا- هذه العين هي (لخضر)، ولخضر يحتمي وراء التعويذة السحرية (دخّي)، ولهذا فقد ينزلق بنا الأمر إلى نوع من السخرية حينما تحاول ثقافة المجتمع التقليدي أن تبرّر لنا دلالة هذا الاسم في بيئة يمكن أن يكون لكلّ شيء فيها معنى عدا الخضرة، فإنّنا لا نجدها إلا في الخيال الشعبي لهذه الجماعة، ذلك أنّ اللون الأخضر في بيئة صحراوية قاحلة ومقفرة ليس فيها إلا نخلات يصنع مفارقة دلالية في مستوى مركزيّة هذه الثقافة التي تصارع من أجل البقاء.وعليه فإنّه بحكم محدودية الخيال في هذه البيئة الجافة نجد دلالة هذا الاسم بمثابة المتعالية الخطابية التي ترمز إلى مستوى الوعي الرمزي بأهميّة الحياة.

غير أنّ الثقافة من جانب آخر قد تقف عاجزة عن مقارعة الفحل (سيدي الهاشمي) شيخ الطريقة القادرية، لأنّ (لخضر) مجرّد مريد صغير تسير به الأقدار نحو المستقبل المجهول بحيث تحمله رياح السخريّة لملاقاة صاحب البركة (الشيخ الهاشمي) القاضي الأول في الواديين:(سوف وريغ)،فهو مفخرة الصحراء الممتدة في الزمان والمكان"**لين السوفي كما يعرف في البلدة يفكّر في فرصة يقف فيها بين يدي سيدي الهاشمي، ليقدّمابنه لخضر الذي انتهى الشهر الماضي من حفظ القرآن**"[14]، وموطن السخرية هنا هي حرص الوالد على تقديم ابنه إلى شيخه الهاشمي الذي يرى في هذا التقديم بمثابة اللاحدث أو بالواجب الثقيل أو الشيء الرمزي الذي تصنعه الثقافة النمطية في المجتمع التقليدي، لذلك اكتفى الشيخ الهاشمي بعبارة "**الله الله يبارك ما شاء الله**"[15] التي هي بمثابة التعويذة السحرية من

رجل نافذ في الحضرة الإلهية كالشيخ الهاشمي كما يتصوّره المخيال الشعبي؛ ثمّ يأمر والده بإرساله إلى تونس بلد العلم والعلماء دون أن يكلّف نفسه بمساعدته ماديا وهو يعرف فقره المدقع، كأن يهبه جائزة أو منحة أو حافزا يعين الصبي على رحلة العلم الشاقة، وتشتدّ السخرية لما يقابل الوالد هذا الفتح المبهم متلعثما "**تونس تونس يا..يا.. لمين لخضر..لمين يا سيدي**"[16]

فنسق السخرية هنا تتقاسمه الجماعة الشعبية من خلال الركون إلى الماورائي المبهم مجاراة مع القدر المعلوم، فيمتزج الدين بالخرافة ليصبح التشبّث بالبقاء أمرا ملحّا تذكّيه الأماني والأحلام اللذيذة التي تساعد هؤلاء المتْعبِين على تقبّل أيّ أملٍ يلوح في الأفق يمكن أن يُغيّر من واقعهم البائس.

كما يتحوّل اللّون الأخضر في هذه البيئة القاحلة إلى مفارقة تدعو إلى السخرية لإبراز أهميّة هذا اللون أمام الآخر القادم من سياق آخر مختلف تماما، (الخضرة) عنده لا تثير الفضول فهذه الأرض الصحراوية الطينية الممتدة لا بدّ أن تقف عند أقدام (خضرة داكنة) هي خضرة النخيل مصدر الرزق الوحيد لسكان قرية (سيدي عمران)، فلو كان العكس لما حدثت مفارقة السخرية، وأمّا أنّ حدود هذه الخضرة ينتهي دورها كفاصل فقط لامتداد حمرة الطين فهذا يعني أنّ منسوب الحياة في هذه البيئة ضئيل جدا..!!

وكأنّ الكاتب قد انتبه إلى هذه المفارقة الطبيعية، فيعود المشهد بنا إلى حدث استقبال (سيدي الهاشمي)وكيف تمّت مراسيم هذاالاستقبال الفاخم، وبما أنّ التكرار يعدّ من آليات السخرية فإنّ الكاتب لم يجد شيئا آخر (يحفظ به ماء الوجه) في تسريد هذا الحدث عدا وصفه لصفوف النخيل الدّاكنة مضيئاً لنا فسحة تبئيرية دفعا لمسار الرواية لا غير"**صفّ آخر من الخيالة يمتطون الخيل ويطلقون البارود من البنادق ثم يستديرون بحركات فنطازية ويركضون إلى الساحة الواسعة التي لا يحدّها إلا الصفوف الخضراء الدّاكنة لغابات النخيل**" [17]

3.2.الأشقر الشبقي/بداية رحلة الضياع.

لا يمكن أن نتحدّث عن دلالات اللون الأشقر ما لم نعرف معناه عند العرب، فقد جاء في كتاب الملمع للنّمري أنّه "قد يوصف الرجل بالحمرة فنقول كان الرجل أحمر فهو أشقر والشقرة عند العرب عيب"[18]، ومن هنا بيت القصيد، ولهذا ينبغي البحث عن دلالة السخرية مع هذا اللون،وللتنويه فإنّه يعدّ لونا فرعيّا مما يعرّضه للمساءلة الدلالية وهذا ما سنراه من خلال نسقية هذا اللون في رواية سفر القضاة.

يبدأ تشكّل هذا النسق مع الرومية الشقراء(سيمون) صاحبة حانة الخمر بمدينة (تقرت) حيث لجأ لخضر أو الطالب لخضر بعد أن طرده أبوه بسبب تمرّده على الزاوية ومحاولته النيل من مكانتها في قلوب أبناء (سيدي عمران)، بحيث لا يكتفي الكاتب بالتعريف بها لكونها فرنسية ومن أبناء المعمّرين الذين استوطنوا مدينة (تقرت) المدينة الصحراوية الهادئة عاصمة وادي ريغ بل كان ينعتها في كلّ مرّة بـ(السيدة الشقراء)، فيصف لنا في مشهد تبئيري تحسّن أحوال (الطالب لخضر) مع بداية عمله الجديد في (البار) مع السيدة الشقراء"..**وهكذا جرت النقود في يده بعد أن استحسنت السيدة الشقراء عمله وأصبح يحلّ محلّها أحيانا وراء المنضدة الخشبية، يعمل بنظام الدفع المسبق الذي كان قد أدخله على البار، فقد زادته السيدة الشقراء في الأجرة مرتين..**"[19]والحقيقة أنّذلك يتضمّن خطاباً ساخراً يحيلنا إلى البنية العميقة للمجتمع التقليدي في الجنوب الذي يرى في دلالة هذا اللون تنميط للآخر المختلف عنه ثقافة وموطنا، ولهذا يجب التعريض به والتنبيه إلى خطره على المجتمع الصحراوي المحافظ، لأنّه رمز الإغراء والشبقيّة، ومنه تبدأ رحلة الضياع لا سيما والشعب يخوض إرهاصات معركة مصيرية تستهدف هويته وحريته وتطلعه إلى الخلاص من الذل والمهانة التي جرّعه إياها الاستعمار لعشرات السنين.

وقد يحدث أحيانا اشتباكٌ نسقيٌّ في البنية العميقة بين الأشقر الشبقي والأسمر النسقي بسبب التباين بين الثقافتين فتتجسّد روح الاستغلال من خلال إظهار الفجوة اللونية التي تدعو إلى السخرية "..**فوجدت أن العمل يسير بصفة عادية والشاب الأسمر يشرف على العمال ويستقبل الشاحنة الموزعة للبضاعة، وينزل الصناديق ويمسك الفواتير ويسدّدها**"[20]فمدام سيمون ليست مجرّد امرأة فرنسية تستثمر في تجارة الخمور أو تصدير التمور بعد شرائها من الأهالي بأثمان زهيدة وإنّما هي رمز الفتنة والإغراء، وهكذا يراها شباب (سيدي عمران).

وأمّا لونها الأشقر فقد غدا علامة مميزة في ذلك تُعرف به(سيمون)في هذا المحيط البائس والمحروم عاطفيّا، وهذا المظهر الذي تكشف عنه البشرة الإنسانيّة ما هو إلا نسق جمالي يختفي وراءه نسق مضمر أنتجته ثقافة هذا المجتمع الصحراوي المعزول الذي يتقاسم جميع أفراده البشرة السمراء، في حين يصبح (الأشقر) استثناء، ليس بيولوجيا فقط وإنّما الأمر يتعلّق بالنسق الثقافي الذي تشكّل في الضمير الجمعي عن الآخر المختلف القادم من وراء البحر حاملا معه حضارة بلا قيم ولا ضوابط أخلاقيّة، حضارة لا تؤمن إلا بإشباع شهوات الجسد قيمة مركزية؛ وبالتالي فإنّ اللون الأشقر تحوّل إلى متعالية خطابية ونسقا مضمرا يسهل الحكم عليه أنّه رمز لضياع الهويّة، وخيانة المبادئ، ويبدو المشهد ساخرا حين **"فكّر لخضر قليلا ثمّ أومأ رأسه بالإيجاب، ابتسمت السيدة الشقراء وهي تقول:**

Tu es gentil...

لا كدار أنت عاقل

Fantastique وعلى الفور ناولته ورقتين أحداهما من فئة المائة فرنك والثانية من فئة الخمسين فرنك...ثمّ اختارت له كرسيّا وسلّمته إيّاه"[21] وكانت السيدة الشقراء تغري لخضر بالعمل لديها كحارسلخمّارتها في النهار ومضاجعا لها بالليل، ولهذا فإنّ الشبقيّة تصبحُ معادلا موضوعيّا للّون الأشقر، وممّا يؤكّد هذه الوظيفة التي أدّاها هذا اللون نسقيا هو وصفه لمشهد شبقي تخوضه السيدة الشقراء في بيتها **"وهكذا بات لخضر في فراش السيدة الشقراء، يغرق في أتون الإثم والرذيلة..يغرق..يغرق يتنفّس تحت الماء"**، وهو مشهد درامي ساخر يذكّرنا بطريقة العرض في الأفلام الإباحية؛ فالسيدة الشقراء تسخر من فحولة (الطالب لخضر) الذي يمثّل الواقع المتناقضالذي ضيع رسالتهوصنع المفارقة بتخلّيه عن سلاح العلم والمروءة لصالح شهواته وإشباع غرائزه المكبوتة ليصبح الأشقر الشبقي بداية رحلة الضياع. ومن جانب آخر أنّ هذا اللون باعتباره لونا فرعيّا يضعه في خانة الهوامش التي تحدّث عنها (الغذامي)، وذلك أنّه تحوّل نسقي من المتن إلى الهامش، وهو الشيء الذي يجعل الأنظار تتحوّل إليه وتمنحه صفة الفرز الثقافي، ومن ثمّة يصبح ثقافة مستقلّة تقاوم وسط صراع من الثقافات ولاسيما حينما يكون التقابل ممكناً في اللاوعي الجمعي بينه وبين نسق السمرة الذي يعتبر ثقافة الأغلبية في مجتمع سيدي عمران خصوصاً ومجتمع وادي ريغ عموماً.

3.خاتمة:

انتهت هذه الدّراسة إلى أنّ خطاب الألوان في مجتمع الصحراء التقليدي يندرج ضمن العيوب النسقية التي تتستّر وراء الجمالي من الخطاب، فقد فضحت رواية"سفر القضاة" ألاعيب الثقافة وتحايلها في تسويق فكرة الزمن الجميل عن هذا النوع من المجتمعات، إذ أنّ لون البشرة يبقى حاجزا ثقافياً يفصل بين الفئات الاجتماعية غير المتجانسة عرقيّاً عن بعضها البعض.

ورغم أنّ اللون الأخضر يحيل إلى النماء والخصوبة والسعادة إلى أنّ الخطاب في الرواية انزاح به إلى نسق السخرية، فالخضرة في هذه البيئة القاحلة لا تتجاوز تلك الواحات الصغيرة التي تحفّ هذه القرية البائسة، وأمّا ما بعدها فهو موات وعدم .

كما أنّ بطل القصة "الطالب لخضر" ظلّ يعيش مفارقة مرهِقة في دلالة اسمه، إذ لم ير السعادة التي كان يأملها والداه، ولم يستطع أن يحقق حلمهما في تونس، وظلت هذه المفارقة شبحاً يطارده حتى وهو في أرذل العمر بعد تورّط مع الجماعات المتمرّدة..

في حين أن اللون الأشقر باعتباره لونا ثانويا فقد فرض نفسه في حياة هؤلاء القرويين، وقدّمته الرواية على أنّه مفتاح الغواية والضياع، لكنّه يبقى دائما ذلك الآخر المختلف الذي تحيّده الثقافة وتعتبره في كلّ الحالات مغنماً وفسحة من حرامٍ، وواجهة للثقافة الاستعمارية الدخيلة التي يجب مهادنتها في الظاهر ومقاومتها في الباطن.

الهوامش:

[1] كاتب وباحث وأكاديمي جزائري من مواليد بلدة الرُّقَيبة إحدى واحات وادي سوف بالصحراء الشرقية الجزائرية سنة 1961، أستاذ الأدب الشعبي بجامعة الوادي، امتاز مساره العلمي والإبداعي بغزارة الإنتاج، ومن أعماله الروائية تحديدا: المقبرة البيضاء، ليلة هروب فجرة، سِفر القضاة، ثورة الملائكة. بالإضافة إلى عشرات الكتب والبحوث والدراسات وأعمال الجمع الميداني للموروثات الشعبية.

[2] أمينة الدهري, الحِجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة مكتبة المدارس, الدار البيضاء, المغرب ,ط1 2011 م, ص 34 .

[3] ابن منظور،لسان العرب, دار صادر , مادة (سخر) , مج/3 , ص 113 .

[4] الحِجاج وبناء الخطاب في ضوء البلاغة الجديدة مكتبة المدارس, م س, ص 35 .

[5] ياسين أحمد فاعور, السخرية في أدب إميل حبيبي،دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع, سوسة, تونس(د.ت.ط)ص:66 .

[6] رشيد الراضي,الحجاج والمغالطة من الحوار في العقل إلى العقل في الحوار، دار الكتاب الجديد , بيروت، ط1 2010، ص:30.

* مفردها (وُصِيف)، والثقافة الشعبية في الصحراء تحيله إلى كلّ ذي بشرة سوداء داكنة، غير أنّ دلالة الاسم التاريخية ترتبط بمعنى (الوَصَافة) وهم خدم السيّد أو الحاكم، وهي من الكلمات التي تطوّرت نسقيا بسبب الضائقة الحضارية للأمّة، وجاء في لسان العرب :"..والوصيف: الخادم،غلاما كان أو جارية، ويُقال وصُف الغلام إذا بلغ الخدمة،فهو وصيف بيّن الوصافة.." ، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، فصل الواو، مج9،دار صادر، بيروت،(د.ت) ص: 357.

[7] أحمد مختار عمر،اللغة واللون،عالم الكتب للنشر والتوزيع، القاهرة،ط2، 1997، ص: 186.

* مثل يُضرب في مجتمع الصحراء التقليدي، وهو من عيوب الثقافة التي يسترها الجمالي من الخطاب، وتحرير المعنى أنّ (العبيد)لا يُكترث بمشورتهم حتى وإن كانت صائبة. إلا أنّ ثقافة المجتمع التقليدي حوّرت المعنى إلى دلالة السخرية والتعريض بهم عبر سواد لونهم وهو النسق المضمر. بينما المعنى الحقيقي التي تتحايل به الثقافة هو الإمعان في معاقبة كلّ من يعتدّ برأيه ويرفض الإصغاء لرأي الجماعة.

[8] أحمد زغب، سِفر القُضاة (رواية)، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2017، ص: 5.

* البرنوس أو البرنس أو سلهام هو عبارة عن معطف طويل من الصوف يضم غطاء رأس مذبب وليس به أكمام. وينتشر استعماله في منطقة الشمال الأفريقي، فهو جزء من اللباس التقليدي الجزائري واللباس التقليدي التونسي كما يستخدم على نطاق واسع في المغرب وليبيا. يُنظر: البرنوسhttps://ar.wikipedia.org/wikiتاريخ الزيارة: 2020/07/14، الساعة: 21.00.

[9] أحمد زغب، سِفر القضاة، مصدر سابق، ص: 6

[10] الصفحة نفسها.

[11] المصدر نفسه، ص: 20.

[12] المصدر نفسه، ص: 21.

* النفّة: مسحوق تبغي يميل إلى الصفرة، ويعرف في الأوساط الشعبية الجزائرية بـ(الشمّة) يتعاطاه المدخّن عن طريق الفم أو الأنف.

[13] أحمد زغب، سفر القضاة، مصدر سابق، ص: 35.

* الترخيم ظاهرة لسانية شائعة كثيرا في مجتمع الصحراء التقليدي على الخصوص لدرجة أنّه يعدّ نوعا من الثقافة التي تمارس حيال أسماء (العَلَم)، غير أنّه –أي الترخيم- يشترط فيه أن يخضع لمبدأ توافق الجماعة الشعبية دون وجود تعليل مقنع حين يتعلّق الأمر بقلب بعض الحروف أو تغييرها أصلا من خارج جذر الكلمة فلا نجد مثلا علاقة بين أحمد و(بِدَّة) أو بين لخضر و(دخّي) كما أنّ هذا المجتمع قد يكتفي بالترخيم حرفا واحدا مثل: (الحو) للحسين و(الجُو) للتّجاني وهلمّ جرّا..

[14] أحمد زغب، سفر القضاة، مصدر سابق ، ص: 15.

[15] الصفحة نفسها.

[16] المصدر نفسه ، ص:16.

[17] المصدر نفسه، ص: 14

[18] النّمري الحسين بن علي، الملمع، تح: وجيه أحمد السّطل، دمشق ، ط1، 1976، ص: 90.

[19] أحمد زغب، سِفر القضاة، مصدر سابق، ص:56.

[20] الصفحة نفسها.

[21] المصدر نفسه، ص: 53.